كلمة صريحة

— ٢ —

موعد في الأرض المقدسة



لست أريد أن ألقي كلامًا حماسيًا ...!
ولست أريد أن أرفع معنويات الجيش بعد حوادث غزة الأخيرة
أريد أن أقول الحقيقة ...
جمال عبد الناصر

صدر عن ادارة الشئون العامة للقوات المسلحة ١٩٥٥

شراك المنكبوت

فى احدى دور السينما . فى القاهرة . منذ بضعة أسابيع . شاهدت قصة سينمائية مثيرة .

قصة بوليسية ، من ذلك النوع الذى تتفنن فيه هوليوود ، ويتبارى مخرجوها فى ملئه بكل ما يشد أعصاب الناس ، ويكاد يحبس عليهم أنفاسهم من حبكة المفاجأة وقوة اصطناع المؤثرات .

وكان للقصة — ككل قصة — بطلان : أولهما استولى الشيطان على قلبه وعقله فزرعهما بالشر والدهاء .

وثانيهما رجل طيب يؤمن بالخير وبالحب بين الناس .

وتطورت ظروف القصة .

وأن الرجل — الذى ملكه الشيطان — يرتكب جريمة قتل ، واكثر من ذلك يرتب مسرح الجريمة بحيث يلقى التهمة كلها على الرجل الطيب .

وتمضى حوادث القصة الى ذروة الاثارة ، فاذا الشبهات تحيط من كل جانب بالرجل الطيب ، واذا الريب تطبق عليه من اليمين ومن الشمال ، واذا نظرات الشك تلاحقه ، ثم اذا بالتهم تمسك بتلابيبه وتضعه داخل القفص الرهيب .

الرجل الطيب يكاد يجن ... يكاد يفقد أعصابه .

ينكر ويلح فى إنكاره فلا يجد من يسمع أو يصدق حتى أقرب الناس اليه !

يحاول أن يدفع عن نفسه شراك العنكبوت التى وقع فى أحابيلها ، فاذا الشواهد الملفقة — التى أحسن تلفيقها — تشده بأغلال جديدة .

يتخبط الرجل الطيب ، ويضيع ، وينهار !

يملكه اليأس على نفسه ، وتختلط معالم الحق فى وجدانه المهزوز بمعالم الباطل الذى دس عليه .

حتى هو . . أخيراً . . من ضغط الالحاح عليه ، وشدة الحصار حوله ، يكاد يعترف على نفسه بجريمة لم يرتكبها . . ولم يفكر يوما فى ارتكابها !

المجـــرم الحقيقى !

لقد ذكرتنى هذه القصة بجيش مصر فى فلسطين .

لقد كانت فى فلسطين هزيمة ، كما كان فى القصة السينمائية جريمة ، ولكن من الذى هزم فى فلسطين !

فى رأيى أن جيش مصر لم يرتكب جريمة فلسطين ، وانما ارتكبها غيره ، وزيف الأدلة عليه ، ودبر الشبهات حتى تلاحقه ، وتحمله الوزر الذى هو منه براء .

وكما حدث فى القصة حدث فى الجيش .

كاد الجيش الطيب نفسه ، يصدق مهزلة هزيمته وكاد أقرب الناس اليه — شعب مصر وغيره من الشعوب الصديقة — ينطلى عليهم الزور ويصدقونه !

ولقد انجلى الأمر ، وبان الحق ، فى القصة السينمائية بعد ساعة أو أكثر وخرج البرىء رافعاً رأسه من القفص . . ودخل المجرم الداهية لكى يلقى حسابه .

ولكن فى المأساة التى عشناها فى فلسطين ، مضى الكابوس الرهيب ، ست سنوات . . طويلة مظلمة .

وحين وقفت فى الكلية الحربية منذ أيام أقول أن الجيش المصرى لم يهزم فى فلسطين ، لم أكن أريد أن ألقى كلاما حماسياً . . ولا كنت أريد أن أرفع من معنويات الجيش بعد حادث غزة الأخير .

كنت أقول الحقيقة التى عشتها ،

كنت أحاول أن أمزق نسيج العنكبوت التى وقع جيشنا فريسة له .

كنت أريد ببساطة أن أقول : أن هذا الجيش لم يرتكب هزيمة فلسطين . وأن الهزيمة لفقت عليه . ودبرت مظاهرها من حوله افتراء وبهتانا .

لقد كان هناك مجرم آخر يجب أن يحاسب على الهزيمة .

أما الجيش فيجب أن يخرج من قفص الاتهام .

٦ سنوات تحت الكابوس !

لم أكن فى مأساة فلسطين أجلس على مقاعد المتفرجين ، كما كنت فى تلك القصة المثيرة التى شاهدتها فى إحدى دور السينما فى القاهرة منذ بضعة أسابيع .

كنت أيامها على المسرح مع غيرى من آلاف الضباط والجنود الذين زيفت عليهم هزيمة لم يرتكبوها .

وأنا أذكر اليوم كيف بدأ دورى فى المأساة .

كنا فى شهر أبريل سنة ١٩٤٨ .

وكان تنظيم الضباط الأحرار قابعا منكمشا على نفسه ، فقد كانت كلاب الصيد تتحسس آثارنا من كل اتجاه .

كانت هناك محاولة فى الجيش لم يكتب لها النجاح .

وكانت عيون البوليس السياسى متجهة إلى الجيش .

وكان الوقت بالنسبة لنا غير صالح للحركة على الاطلاق .

وكانت اجتماعاتنا قليلة فلم نكن نريد أن نلفت إلينا أنظار أحد .

وكنت منهمكا فى الاستعداد لانتهاء الدراسة فى كلية أركان الحرب .

ولكن هموم الدراسة ومشاقها لم تستطع فى ذلك اليوم أن تصد عن أذنى طبول المعركة التى كانت تدق فى فلسطين .

وكانت الحماسة بالغة وروح القتال على أشدها خصوصاً بين زملائنا من الضباط الشبان ، وكان كثيرون من إخواننا فى تنظيم الضباط الاحرار

يتسللون إلى فى خفية من عيون الرقابة ليهمس الواحد منهم فى أذنى بانه يريد أن يتطوع للقتال فى فلسطين .

وكنت فى حيرة مع نفسى .

كانت هناك عوامل كثيرة تتنازع تفكيرى .

هل أتطوع أنا الآخر ، أخلع ملابسى الرسمية ، وأحمل مدفعا صغيراً فى يدى وأمضى إلى المعركة . . أم أنتظر انتهاء الدراسة فى كلية أركان الحرب وقد قضيت أكثر من عام أستعد له . ولم يبق عليه إلا شهر واحد ؟

واجتمع فريق من أعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار فى ذلك الوقت فى بيتى ، واستقر الرأى على أن يسافر بعضنا الى فلسطين متطوعا ويبقى البعض الآخر فى القاهرة .

موعد فى الأرض المقدسة !

وذات صباح وجدت نفسى فى محطة القاهرة ، مع عبد الحكيم عامر ، وزكريا محي الدين ، نودع صديقنا وزميلنا فى اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار ، كمال الدين حسين ، وكان فى طريقه الى فلسطين مع غيره من الأصدقاء والزملاء .

كنا نهنئهم على الفرصة المتاحة لهم ، وكنا نواعدهم على اللقاء بعد يوم غير بعيد فى الأرض المقدسة التى سيسبقوننا اليها . وكنا نؤكد

لهم فى حماسة ملتهبة أننا سنحاول من القاهرة أن نبـذل جهدنا لانجاح معركتهم .

وكان آخر شىء قلته لكمال الدين حسين قبل أن يتحرك القطار :

— اذا احتجت شيئا فابعث الى ، سوف ألاحق أية طلبات لكم فى الجيش ، ولن نترك الروتين العادى والتواكل والتهاون ، تعوق طريقكم !

وتحرك القطار وقلوبنا تهتز من فرط الانفعال .

ولم أعد يومها الى بيتى ، وانما طرقت باب إحدى الصحف اليومية ، وطلبت الى رئيس تحريرها أن يسمح لى بأن أكتب له وصف سفر القطار المتجه الى فلسطين ، وجلست . وقلبى ما زال يهتز من فرط الانفعال ، وكتبت ما حدث فى محطة القاهرة ، وظللت ساهراً فى دار الصحيفة أنتظر أن تدور عجلات المطبعة بما كتبته !

عاصفة من الدموع

وبدأت أيام شهر مايو ونحن ما نزال فى القاهرة ، وأعصابنا تحيا فى فلسطين .

كنا نعيش فى دوامه من الأفكار والمشاعر .

وذات يوم قيل لنا أن دفعتنا من كلية أركان الحرب سوف تتخرج قبل الوقت المحدد ، فان احتمالات فلسطين قد تقضى بهذا

وكان احتفال التخرج بسيطا سريعا ، هرعنا بعده لنعرف الى أين ينتهى بنا المطاف ، وصدرت الى الأوامر بان التحق بالكتيبة السادسة .

وصدرت الى عبد الحكيم عامر لكى يلتحق بالكتيبة التاسعة .

وصدرت الى زكريا محي الدين لكى يلتحق بالكتيبة الأولى .

وكانت الكتائب الثلاث يومها على الحدود ، ولم يكن هناك من يعرف على وجه اليقين ، ما الذى ستأتى به الأيام المقبلة !

وكنا نحن الثلاثة — على أى حال — نتعجل الزمان لكى نستطيع أن نلحق بكتائبنا على الحدود .

وكانت الأوامر الصادرة لنا أن نغادر القاهرة يوم ١٦ مايو .

ولكن حماستنا لم تكن تطيق الانتظار فقد كانت الصحف تطالعنا كل صباح بفيض من الأنباء عما يجرى فى فلسطين ، وفى الوقت ذاته كانت هناك تخمينات كثيرة وظنون متضاربة عن الموقف الرسمى الذى قد تتخذه الحكومة المصرية فى ذلك الوقت .

ولم يبد من سياق ما كنا نقرؤه فى الصحف شىء واضح على وجه التحديد ولكن احتمال دخول حرب فلسطين كان قد بدأ يظهر ، وكان الشعور فى كل مكان حولنا فياضاً دافقا .

وغادرت بيتى صباح ١٦ مايو أحمل حقيبة الميدان بعد أن تركت على إحدى الموائد صحيفة الصباح ، وكانت صفحتها الأولى مليئة بالبلاغ

الرسمى الاول الذى صدر عن وزارة الدفاع فى ذلك الوقت يروى للناس بداية العمليات الحربية فى فلسطين .

وتملكنى شعور غريب وأنا أقفز درجات السلم .

« اذن فانا فى الطريق الى ميدان القتال ! »

واتجهت بى السيارة الى بيت عبد الحكيم عامر فقد كان مقرراً أن أمر عليه وعلى زكريا محى الدين لكى نسافر معاً . وتركت فكرة ميدان القتال تستولى على أفكارى كلهـــا فقد كنت أريد أن اتجه الى الذى ينتظرنى ، وأنسى تماماً كل ما تركته وراء ظهرى ، وأنسى شبح عاصفة من الدموع لمحتها تتجمع قبـــل أن أخرج من بيتى وتنتظر أن أبدأ هبوط السلم لكى يبدأ تساقطها !!

فى الطريق الى الميدان !

وكان القطار الذى غادر القاهرة متجهاً نحو الحدود ، حيث جبهة القتال نموذجاً رائعاً لأمثاله أيام الحروب .

الضباط والجنود فى كل ركن منه .

ربطات الميدان تسد الممرات .

قطع السلاح والخوذات المتناثرة تضفى على الجو لمسة أخيرة معبرة .

وكانت الحماسة تطبع كل حركة وكل كلمة وكل نظرة فى عين !

وكانت هناك أحاديث عن المجهول الذى ينتظرنا والذى كنا نريد أن نقذف أرواحنا وأجسادنا فى أقداره المخبوءة .

وكانت هناك فى بعض الأحيان ، أحاديث عن الزملاء الذين سبقونا الى الميدان والذين تركناهم وراءنا فى العاصمة .

ولم يكد القطار يتحرك فى اتجاه ميدان القتال حتى أصبح الركن الذى جلسنا فيه — عبد الحكيم وزكريا وأنا — أشبه ما يكون بغرفة عمليات حربية .

وفتحنا خريطة كبيرة بيننا ، وبدأنا نناقش الموقف .

وبدت أمامنا للوهلة الأولى فجوات كان يمكن أن يتسرب منها الى خطوطنا خطر .

كان الجيش المصرى يومها مكونا من تسع كتائب ، ولكن ثلاثاً منها فقط كانت قرب الحدود حينما صدر الأمر بدخول فلسطين ، وكانت هناك رابعة فى الطريق .

وكنا نتساءل والقطار يندفع بنا الى ميدان القتال :

« لماذا لم يحشد عدد كبير من الكتائب ما دمنا نريد دخول حرب فى فلسطين ! »

ولماذا لم يستدع الاحتياطى لكى تكون منه كتائب جديدة ترسل إلى الميدان على عجل ؟

ثم لماذا يصف البلاغ الرسمى الأول عمليات فلسطين بأنها مجرد حملة لتأديب العصابات الصهيونية ؟

وعلى أى حال فان الحماسة لم تلبث أن ملأت الفجوات جميعا ، وسدت ما بينها !

العريش تحت الظلام !

ولكن الاحساس بالفجوات المنذرة بالخطر لم يلبث أن عاد إلينا عند ما وصل القطار بنا إلى العريش .

كان المظهر الخارجي للبلدة الغارقة فى ظلام الليل الحالك يتلاقى فى خيالنا مع الهيبة التى كنا نتصورها للقاعدة الخلفية لميدان العمليات .

ولكن المتناقضات كانت تصدمنا كلما تعمقنا داخل المظهر الخارجى إلى صميم العمل الحربى الذى كان يجب أن تقوم به القاعدة !

لم يكن هناك من يهتم بنا أو يرشدنا إلى الذى يتعين علينا أن نصنعه .

ولم نكن ندرى أين مواقع وحداتنا بالضبط حتى نستطيع أن نلحق بها ، ولم نجد أحدا يستطيع أن يرشدنا إلى هذه المواقع .

وذهبنا الى رياسة المنطقة ونحن نتصورها خلية نحل تئز بالحركة الدائبة ، ولكن رياسة المنطقة لم يكن بها أحد كأنما هى بيت مهجور ، فى بقعة من الأرض ، لا يسكنها بشر .

وحين عثرنا على أركان حرب المنطقة ، كان الشاب يبحث عن عشاء لنفسه !

واستضفناه على ما كان معنا من بقايا طعام ، وكانت أصوات ضحكاتنا وأحاديثنا تجلجل فى البيت المهجور ، وكانت لاصدائها فى نفسى مشاعر غريبة .

وجاءتنا الأخبار بعد العشاء بمواقع كتائبنا على وجه التخمين .



فى ١٥ مايو كانت لنا ٣ كتائب فى فلسطين : الاولى والتاسعة
تزحفان تجاه غزة والسادسة تتجه إلى مستعمرة الدنجور

كانت الكتيبة التاسعة فى غزة ، وكذلك الكتيبة الأولى .

أما الكتيبة السادسة التى كنت سأعمل أركان حرب لها فقد كانت ما تزال فى رفح ، وان كانت قد تحركت منها إلى عملية ضد مستعمرة الدنجور ثم عادت اليها مرة أخرى !

وافترقنا .

ركب عبد الحكيم وزكريا سيارة جيب إلى غزة .

وركبت أنا سيارة أخرى إلى مواقع كتيبتى فى رفح !

ضحايا المعركة

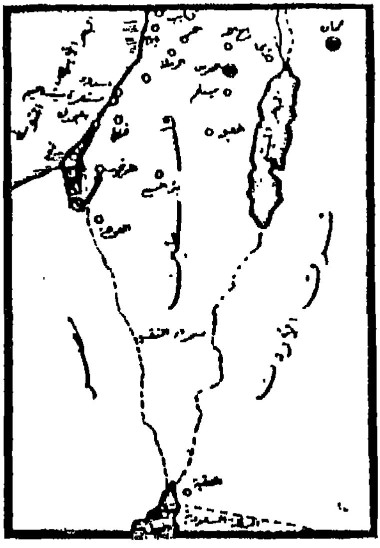
كان الجو فى الكتيبة السادسة حين وصلت اليها فى حال عجيب

كانت الكتيبة قد فرغت لتوها من عملية ضد مستعمرة الدنجور عادت بعدها إلى مراكزها فى رفح ، ولقد تركت الكتيبة وراءها على أرض المعركة حول الدنجور بعض الضحايا ، ولكنى أحسست أنه كان بين الضحايا الذين تركتهم الكتيبة عند الدنجور إيمانها بالحرب التى تخوض غمارها .

وبدأت أسمع التفاصيل .

صدرت الأوامر من القاهرة بأن تتحرك الكتيبة الى الدنجور فى ليلة ١٥ مايو

ولم يكن هناك وقت لكى تستكشف الكتيبة غرضها الذى سوف تهاجمه ، وكذلك لم تكن هناك معلومات قدمت لها عنه .



استمرت الكتائب الثلاث تتقدم . . وصلت الأولى والتاسعة إلى شمال الجبهة وكلفت السادسة بأن تحتل مواقع أسدود .

وكان هناك دليل عربى واحد نيطت به مهمة قيادة الكتيبة الى موقع مستعمرة الدنجور ، ولم يكن هذا الدليل يعلم شيئاً عن تحصيناتها ودفاعها ، وكل الذى قام به هو أن ظل يرشد الكتيبة إلى الطريق ويدلى لها بمعلومات غير واضحة ولا دقيقة حتى ظهرت أمامها فجأة تحصينات الدنجور .

ولم يسترح الجنود بعد الرحلة الشاقة وإنما اندفعوا إلى الاسلاك .

ولم يكن هناك من يعرف ما الذى يجب عمله على وجه التحديد .

ولكن المدافعين عن الدنجور كانوا يعرفون .

وأصيبت الكتيبة بخسائر لم تكن متوقعة ، وعند الظهر أصدر القائد أمره بالابتعاد عنها وعادت الكتيبة إلى رفح ، لتجد بلاغاً رسمياً أذيع فى القاهرة يقول : أنها أتمت عملية تطهير الدنجور بنجاح !

ولاحظت بين الذى سمعت من تفاصيل ظاهرتين هامتين .

الأولى أن هناك نغمة بين الضباط تقول أن الحرب حرب سياسية .

وكان لهذه النغمة ما يؤيدها ويتناسق معها من كل ما رأوا حولهم .

لم يكن معقولا أن تكون هذه حرباً .

لا قوات تحتشد ، لا استعدادات فى الأسلحة والذخائر ، لا خطط ، لا استكشافات ولا معلومات !

ومع ذلك فهم هناك فى ميدان قتال !

إذن فهى حرب سياسية !

هي اذن حرب ولا حرب

تقدم بلا نصر ، ورجوع بلا هزيمة

هي حرب سياسية فقط . . ؟؟

والنغمة الثانية ان أساطير من المبالغات كانت تؤلف حول قوة العدو العسكرية .

لقد فوجئت القوات بمقاومة مستعمرة الدنجور ولم تكن تعرف عنها شيئاً .

وسمعت واحداً من زملائنا يروى كيف أن أبراجا تعمل بالكهرباء كانت تطلع الى سطح الارض وتطلق النار في كل اتجاه ثم تهبط تحت الارض بالكهرباء أيضاً !

ولم أكن مشتركا في هذا الحديث ، ولكنى لم أستطع السكوت ، والتفت الى زميلنا أسأله :

ــ كيف عرفت أنها تعمل بالكهرباء ، انك لا تستطيع ان تقطع بهذا ، الا اذا كنت دخلت المستعمرة وفحصت قواعد هذه الابراج . . فهل فعلت هذا ؟

وسكت زميلنا ولكن أساطير الأبراج المتحركة بالكهرباء الضاربة في كل اتجاه لم تسكت !

ولم يكن اللوم في رأيي موجها الى هؤلاء الشبان ، انما كان المسئول عنه نقص المعلومات عن العدو نقصا قاتلا مدمراً ! !

تعبير صادق !

وبدات بعدها كأركان حرب للكتيبة السادسة أشعر بالحيرة والعجز اللذين كانا يحكمان قيادتنا العليا أكثر من غيرى .

وكانت مئات العوامل تتنازعنى ، ولم أكن أعرف الوسيلة التى أعبر بها عما أحس .

واعترف انى سمعت من أحد الجنود تعبيراً واضحاً عن حالتنا . . قاله الجندى بلغته الساذجة الدارجة . كانت وصفاً صادقا لما كنا فيه .

جاءت الأوامر الى الكتيبة بأن تهد معسكرها الذى تقيم فيه وتنقل الى مكان آخر يبعد عنه ثلاثة كيلومترات .

ولم أستطع أن أتصور الغرض من هذا التحرك ، ولكن الكارثة الكبرى ان الذين أصدروا أمرهم به لم يكونوا يعرفون لهم غرضا هم الآخرون .

وكان الدليل على بعد ثلاث ساعات من هذا الامر ، وبينما نحن نقيم المعسكر الجديد ، جاءتنا أوامر جديدة بالتحرك الى المحطة وركوب القطار المتجه الى غزة .

وبدأنا نهد الخيام التى لم نكد نفرغ من إقامتها .

وجاء أحد الجاويشية إلى جنـدى كان منهمكا فى إقامة إحدى الخيام وقال له .

ـــ يا عسكرى هد الخيمة .

ونظر الجندى فى دهشة الى الجاويش ، ولما علم أن أوامر جديدة بالتحرك لركوب القطار قد صدرت ، بدأ يهـــد الخيمة التى هدها فى الصباح من مكانها ، وبدأ منذ الظهر يقيمها فى مكان جديد ، ثم أمر بهدها مرة أخرى قبل أن يفرغ من إقامتها ، . . وسمعت الجندى بأذنى يقول :

ـــ يا خيبتنا . . يا خيبتنا !

يقولها منغمة ممدودة . . بلهجة ريفية ساخرة ، وأحسست أن الشكوك التى كانت تساورنى حول عجز قيـــادتنا وترددها قد وصلت الى الجنود . . وان هذا هو التعبير البسيط الساذج عنها .

وركبنا القطار الى غزة وفى قلبي هموم .

وعلى أى حال فقد كان يخفف من همومى كنت اعلم انى سوف التقى بعبد الحكيم عامر فى غزة ، وانى سأستسلم منه مواقعها فقد كان عليه كـاركان حرب للكتيبة التاسعة التى تتولى العمل فيها أن يسلمنى، كـاركان حرب للكتيبة السادسة المواقع التى سنحل فيها مكانهم .

ليست هـــذه حرباً !

وكان بينى وبين عبـــد الحكيم عامر حديث طويل فى غزة ونحن نطوف بالمواقع التى كان عليه أن يسلمها لى .

كانت مواقع الكتائب الأربع فى فلسطين يومها كما يلى :

الكتيبة السادسة متحركة من رفح الى غزة .

الكتيبة التاسعة تستعد لمغادرة غزة بعد وصول كتيبتنا اليها .

الكتيبتان الأولى والثانية متحركتان الى الأمام فى اتجاه المجدل على الطريق الساحلى !

وأذكر اننى صارحت عبد الحكيم بهواجسى .

فقد كنت أحس ان هناك عملية بعثرة لقواتنـــا ، فنحن نتقدم على السهل الساحلى ونترك المستعمرات المحصنة وراء ظهرنا تهدد جناحنا الشرقى وخطوط مواصلاتنا .

وتركنى عبـــد الحكيم عامر مع كتيبته المتقدمة الى الامام والتى كان عليها واجب فى معركة دير سنيد بعـد ان سلمنى الف جنيه كانت فى عهدته ، وكان على ان اشترى بهذه الالف جنيه كل ما أستطيع شراءه من جبن وزيتون !

لم يكن لدى الجنود المتقدمين تعيينات طوارىء يعتمدون

عليها فى المراكز الامامية حيث لا تستطيع الوجبات الساخنة ان تصل اليهم .

ولم يكلف أحد خاطره أن يفكر فى أمر وجبات الطوارىء اللازمة للجنود المحاربين وكل الذى فعلوه انهم بعثوا الينا بألف جنيه وقالوا لنا :

ــ اشتروا جبن وزيتون .

واشتريت كل ما كان فى غزة من الجبن والزيتون ، وقلبي مجروح على الجندى الذى يهاجم المواقع الحصينة بجسده العارى، ثم يجلس وقت الاكل فى جحر كجحور الفيران يقرض قطعة من الجبن ، اشترينا كل ما عثرنا عليه منه فى غزة بألف جنيه ألقوها الينا وقالوا لنا :

ــ تصرفوا . .

وكان قلبي المجروح يهتف بى فى كل دقة من دقاته :

« ليست هذه حربا » !!

وبدأت وأنا فى مكانى فى غزة ألاحق تطورات معركة دير سنيد التى كانت قد بدأت . . ألاحقها دقيقة بدقيقة .

كنت أسمع دوى المدافع عن بعد .

وكان الجرحى من رجالنا يصلون أفواجا بعد أفواج الى مستشفى غزة .

وكانت ليلة ٢٠ مايو من أتعس ليالى حياتى .

قضيتها فى مستشفى غزة العسكرى ، والأسرة حـــولى كلها مليئة بجرحى معركة دير سنيد التى ما تزال مستمرة !

« كل هذا وراديو القاهرة يذيع بلاغا أصدرته القيادة العامة تقول فيه ان قواتنا احتلت مستعمرة دير سنيد واقتحمتها اقتحاماً رائعاً بالمشاة » .

وكانت هذه كذبة مؤلمة .

فان المستعمرة لم تكن قد احتلت بعد ، وان كان الشيء الوحيد الصحيح فى البلاغ الرسمى هو أن المشاة كانت تقوم بعملية اقتحام رائعة .

وكانت فى أعماق ثورة على الذى كان يحدث أمام دير سنيد وتصل الى أخباره . .

أية معركة هذه . . هذه التى يستهلك فيها جنود المشاة بهذه الطريقة المروعة . . فى هجمات نهاريه مكشوفة ، وأجساد عارية لا تحميها قوات مدرعة ، أمام تحصينات قـــوية ، ومدافع ماكينة متحفزة فى أيد معدة مدربة ؟ صحيح ان موجات مشاتنا لم

توقف ، كانت موجة منهم تسقط أمام النار فتجيء موجة بعدها غير هيابة ولا خائفة . . ولكن كنا نسوق جنودنا الى معركة أم كنا ندفع بهم فى غير رحمة الى مجزرة ؟ !

قائد بلا جنـــود !

كان الموقف فى الميدان كله يظهر واضحا لعينى وانا فى مكانى فى غزة .

لقد انتهت معركة دير سنيد بعد تضحيات غاليـــة بالنصر برغم كل المصاعب التى كانت تحيط بقواتنا .

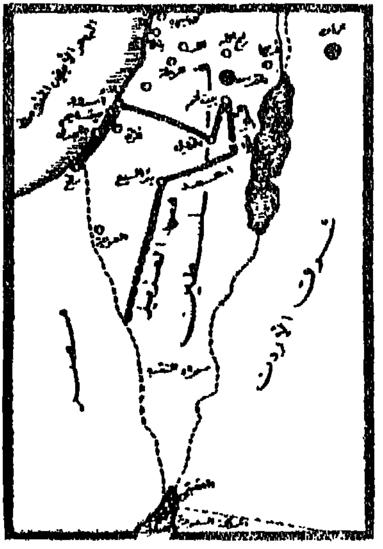
وبعد المعركة صدرت الأوامر الى الكتيبة الأولى بالتقدم الى المجدل .

وتقدمت الكتيبة التاسعة الى أسدود

ثم صدرت أوامر جـــديدة الى الكتيبة الأولى بالاتجاه شرقا واحتلال عرق سويدان . . والفالوجا . . وبيت جبرين .

وكنت أكاد أفقـد اتزانى وأنا أتابع هذه التطورات التى كانت تنشرها صحف القاهرة قبل أن تتحرك قواتنا طبقا لها فى الميدان ! !

ولم أكـن استطيع أن أدرك الهدف من هذه الأعمال جميعاً .



قبل أن يقف القتال بحكم الهدنة الأولى كانت قواتنا مبعثرة بشكل عجيب فأصبح قائدنا العام قائدا بلا جنود ... ؟

لقد كان هم قيادتنا أن تحتل أكبر مساحة من الأرض وكانت نتيجة ان الكتائب الأربع توزعت على خطوط طويلة .

وأصبحت قواتنا المبعثرة لا هم لها الا حماية نفسها ومواصلاتها

ولم يعد هناك تحت تصرف القيادة احتياطى متحرك تستطيع أن توجهه الى ضرب العدو ، وأصبح قائد الجيش المحارب . . قائداً بلا جنود ! أو هو فى الكثير يحكم مجموعة من نقط الحراسة مبعثرة على جبهة واسعة .

وكنت أرى بوضوح أننا فقدنا تماماً القدرة على المبادأة ، سلمنا للعدو طائعين مختارين .

الحرب السياسية !

وكان هذا الذى كنت أراه فى مكانى فى غزة ، واضحا أمام ضباط والجنود فى الخنادق ، وكان له أثره المدمر على الروح المعنوية

كان كل جندى يشعر بالنقص فى السلاح .

واكثر منه يشعر بالنقص فى الخطط .

وأحس كل واحد أن القائد العام فى الميدان لا يملك من قواته شيئا وأنه لا يتصرف طبقا لاحتياجات الميدان ، وإنما

هو يتصرف تحت تأثير عوامل أخرى أبعدها عن حسابه ظروف الميدان .

وكان شعور الجنود والضباط بأنهم تحت رحمة العدو ، وهم هنـــاك فى مراكزهم المعزولة المتناثرة ، يجعلهم يشعرون بانهم هدف منعزل محدد ثابت ، أمام عدو قادر على الحركة السريعة ..

وعاد الكلام فى الخنادق مرة ثانيـة عن الحرب السياسية

وكانت كارثة « الحرب السيـــاسية » أبغض شىء الى تفكيرى فى تلك الظروف ، فقد كنت أعرف من عبر التاريخ انه ما من جيش دخل حربا سياســيه الا هزم فيها ، وكانت آخر الأمثال فى ذاكرتى هزيمة ويفل فى معركة اليونان .

ان الحرب يجب أن تكون حربا !

والقائد فى الميدان يجب أن يتصرف طبقاً لظروف الميدان .

ولكننا كنا فى حرب ولا حرب .

وكان لنا قائد ولكن ليس له جنود ، لأنه بعثرهم على جبهة واسعة بحيث أصبحوا قوات حراسة تكاد مع التفاؤل الشـــديد تكفى لحماية نفسها فقط !!

ووصلت كتيبة جديدة الى الميدان . . هى الكتيبة السابعة



سلاح الحدود ... يحرس ابواب مصر

وصدرت الى الأوامر بان أسلمها قطاع غزة لأن كتيبتنا كان عليها أن تتقدم الى الأمام وتحتل مراكز أسدود .

وكنت أشد الناس سعادة بهذه الأوامر .

كنا ـــ أخيراً ـــ سنلتقي بالعدو ونخوض معركة ضده .

وكنت ـــ مرة أخرى ـــ سألتقي بعبد الحكيم عامر فقد كان هو أركان حرب الكتيبة التاسعة المحاربة فى أسدود ، وكنت

كأركان حرب للكتيبة السادسة سأستلم منه — مرة أخرى المواقع التي تحتلها كتيبته ؟.

وقبل أن نتحرك من غزة جاءتنا أوامر غريبة .

جاءتنا إشارة استعداد بان نجهز أنفسنا لنجدة الجيش الأردنى الذى كان مشتبكا فى معركة بباب الواد .

ولم تكن لدينا أية معلومات عن معركة باب الواد . .

وكان مدهشا فى رأيى أن تكون لنا أربع كتائب فى فلسطين ، ثم نتخلى عن واحدة منها — ربع الجيش المحارب تماما — ونبعث بها الى حيث لا ندرى فى باب الواد !

ولكن الأوامر من حسن الحظ الغيت .

وكنا على استعداد للتحرك ، ومضينا الى حيث كان علينا أن نمضى أولا ... الى اسدود ... الى حيث سنلتقى — أخيراً — بالعدو وجها لوجه ! !

تحت شجرة برتقال

والتقيت بعبد الحكيم فى اسدود .

كان كما تركته لآخر مرة ، ابتسامته التى تبعث على الثقة ، وروحه طليقة ، وقضينا معا ليلة لا أنساها

كان فراشه فى حفرة فى حديقة برتقال .

ووضعت فراشى فى الحفرة نفسها على النـاحية الاخرى من شجرة البرتقال .

ولم تنم طول الليل .

كان الجو غريبا مثيرا

كنا فى أقصى المواقع الأماميه قرب العدو ، وكان جهاز اللاسلكى بجوار عبد الحكيم ينقل اليه التطورات دقيقة بدقيقة .

وعلمت من عبد الحكيم لأول مرة ان هجوما سيقع فى الغد على مستعمرة نيتساليم كما حدث من قبل فى دير سنيد .

وبدأ عبد الحكيم يهدىء قلقى

قال لى أنه تعلم دروسا عن دير سنيد

وقال لى ان روح الضباط الشبان عاليـة لدرجة أنه أجرى قرعة بين السرايا لكى يحدد أيها يقع عليها مهمة قيادة الهجوم . ولكن قائد إحدى السرايا تطوع ورفض اجراء القرعة وكان هو اليوزباشى محمود خليف ، وكان أحد أفراد تنظيم الضباط الأحرار .

وتركنى عبد الحكيم عند الفجر ومضى إلى المعركة .

وقضيت يوما مشحونا

كان على أن أرتب مواقع كتيبتنا فى مواقعها الجديدة !

وكنت مشغولا فى الوقت نفسه بالذى يجرى أمامنا الى الغرب على الساحل فى نيتسايم ، وكنت أتسقط أخبار المعركه .

وعند العصر جاءتنا الأخبار بأن الكتيبة التاسعة نجحت فى عملها وأنها استولت على مستعمرة نيتساليم .

وعلمت أن خليف قائد السرية المتقدمة قد استشهد .

وعلمت أن عبد الحكيم عامر لم يطاوعه قلبه فمضى مع السرية المتقدمة وأن شظية أصابته ولكنه سليم بخير .

وكانت تلك هى المعركة التى رقى فيها عبد الحكيم ترقية استثنائية فى الميدان .

وقضينا الليلة والعدو يطلق علينا النار ونحن نبادله نيراناً بنيران .

ولكن خواطرى لم تكن معى .

كانت تحلق فوق أرض الميدان كله .

كنت أقول لنفسى :

ـــ ها نحن قد نجحنا فى معركة نيتساليم .

إن روح الشجاعة لا تنقص ضباطنا وجنودنا إذن

ولكن ذلك كان العامل المشجع الوحيد ، وفيما عداه كان الموقف كله يبعث على القلق .

كنت بخيالى أطوف الميدان كله فأجد قواتنا المبعثرة يقل تركيزها كلما اقتربت من الخط الأول لملاقاة العدو

كانت منتشرة على مساحات واسعة من الأرض على عددها القليل وكانت كما قلت قد تحولت الى نقط حراسة عليها أن تحمى نفسها .

ولم يكن هناك فائض قوات يمكن استخدامه فى هجوم .

لم نكن نحارب كجيش وإنما تحولنا بعد دخول فلسطين إلى جماعات متفرقة على مراكز واسعة الانتشار . وكانت النتيجة أن العدو نجح فى تثبيتنا فيها . واحتكر لنفسه حق الحركة وحشد القوات والهجوم علينا من حيث يريد .

وكنت أسأل نفسى وألح فى سؤالها !

لماذا فعل قائدنا ذلك ... لماذا شتت قواته وبعثرها بهذه الطريقة .

لماذا سمح لنفسه أن يندفع فى خط طويل مكشوف من كل ناحية أمام العدو ؟

على ربوة عالية !

وبدأت أخبار الهدنة تصل إلينا فى الخنادق .

وجاءتنا الأوامر بوقف القتال فى السادسة صباحاً من يوم الجمعة .

وعاد الكلام مرة أخرى عن الحرب السياسية .

ولكن العدو لم يأخذها حرباً سياسية فقبيل حلول موعد وقف القتال بساعات تلقيت الأخبار بأن قوات منه قطعت الطريق بين المجدل واسدود .

واستطعنا مع العصر أن نخرج العدو بالقوة من المراكز التى كان يحصنها على طريقنا والتى لو بقى فيها لاستطاع ان يمنع النجدة والمؤن عن قواتنا فى اسدود طوال فترة الهدنة .

وقدت سيارة الجيب عند العصر إلى حيث الموقع الذى حاول العدو احتلاله ، ورأيت لأول مرة جثث القتلى من جنوده وحولهم ما كان معهم من ذخائر .

ووقفت على ربوة عالية قرب هـــذا الموقع ومرة أخرى بدأت خواطرى تسرح .

ها أنا على ربوة عالية فى فلسطين بين المجدل وأسدود .
البحر بزرقته الداكنة يمتد الى حافة الأفق جليلا مهيباً .
والشمس الحمراء فى موكب الغروب والوانه الرائعة تهبط وراء البحر
وبالقرب منى جثث عدو يحاول أن يقتلنا وقد نجحنا فى قتله .
والى الشرق مواقع قواتنا المتناثرة ... التى أدت كل ما طلب منها حتى الآن برغم العقبات التى واجهتها والمصاعب التى سدت طريقها ... برغم الجبهة الواسعة .. برغم القوات المشتتة المبعثرة .. برغم الحرب السياسية ... برغم النار تندفع اليها بلا دروع تحميها !

والى الجنوب مقر قيادتنا الـ تعيش فى ميدان القتال وتحارب حربا سياسية .

والى الجنوب الشرق عاصمتنا التى تتحكم فى أمرنا وتوجهنا الى حيث تريد وارادتها اليوم هى حرب ولا حرب .

وهناك بعيداً ... فى نيويورك مجلس الأمن حيث مجموعة من أحد عشر رجلا قرروا فيما بينهم أن تقف المعركة التى نعيش فيها وعلينا أن نطيع .

وملأت رئتى بهواء البحر واستدرت الى سيارتى عبر جثث العدو المبعثرة قرب الطريق وأنا أسأل نفسى :

— ماذا بعد ذلك ... ترى ما الذى يخبئه لنا القدر !!؟

زمام المعركة

كان حالنا قبل الهدنة حربا ولا حرب !

وبعد أن عقدت الهدنة تطور حالنا الى سلام بغير سلام . .

وكان هناك شعور عام على خطوطنا بأن القتال لن يستأنف مرة أخرى ... وكان المنبع الذى انبثق منه هذا الشعور دون شك هو خرافة الحرب السياسية .

وما من شك أن ظواهر الأحوال ساعدت هذا الشعور على أن يغمر خنادقنا .

كنا نخوض حربا بلا استعداد ، فى كل ناحية كان يمكن أن يستعد لها جيش يحارب . .

كان قائدنا فى الميدان يخضع من القاهرة لتوجيهات هى آخر ما تقتضيه احتمالات الميدان . .

كان فى نيويورك — حيث مجلس الأمن — من يملك أن يفرض الصمت على مدافعنا باشارة من يده . . !

وظهر التراخى — نتيجة لهذا كله — على مواقعنا ، وكنت من مكانى فى اسدود كأركان حرب للكتيبة السادسة أرقب هذه الحال بقلق لا أستطيع أن أخفيه .

وكان الذى يزيد من قلقى أنه فى الوقت الذى يحدث فيه ذلك لناحيتنا



لن تهزم مصر فى المستقبل وبين جوانبها امثال هؤلاء الابطال ...

من خط القتال ... تضج الناحية الأخرى بما يمكن أن يكون نقيضا له فى كل شىء . .

وكان فى اسدود برج عال ، وكنت أصعد الى أعلى البرج أحاول أن أمد بصرى إلى الناحية الأخرى . .

لم يكن عليها هدوء ... لم تكن تحكمها هدنة . .

كان النهار يكشف أمامنا حركة متصلة .

وكان الليل يفشي أسراراً . يحاول أصحابها اخفاءها تحت ستار الظلام .

وكنت عند ما يجيء الليل فى كثير من الأحيان ، أترك مركز رياسة الكتيبة الذى كان فى مبنى محطة السكة الحديدية المصنوع بالأسمنت المسلح واتجه الى البرج العالى ، وأقف هناك ساعات متصلة ... وعيونى متجهة عبر خطوطنا الهادئة الى الناحية الأخرى . .

كانت أنوار المستعمرات البعيدة تبدو واضحة من ارتفاع البرج العالى . وكنت ألمح أنواراً كثيرة متحركة متجهة الى المستعمرات عائدة منها . .

كان الموقف العسكرى كله من فوق البرج العالى ، يبدو أصرح وأجلى ما يكون .

كانت أيام القتال بالنسبة لنا حرباً ولا حرب .

وكانت بالنسبة للعدو حربا فقط .

وأصبحت أيام الهدنة بالنسبة لنا ، سلام ولا سلام . . !

ولم تصبح بالنسبة للعدو سلاما قط !

لم يهتفوا للقـــائد الاعلي !

كانت الاخبار تصلنى بانتظام عما يجرى فى الناحية الأخرى من الخطوط .

وكان الموقف على الخريطة أشبه ما يكون بالموقف كما يبدو من قمة البرج العالى الذى يحمل فنطاس الماء لاسدود .

فى أول يوم للهدنة تحرك العدو . فاحتل عوديس التى كانت قرية عربية تكاد تكون متداخلة مع خطوطنا . .

وتحرك العدو أيضا فاحتل بيت دوراس .

وتحرك العدو فاحتل الجسير .

وتحرك العدو فاحتل العسلوج .

وتحرك العدو فاحتل جوليس .

وتحرك العدو وحاول أن يدفع بعض قوافله المتسللة عبر خطوطنا الى المستعمرات المحاصرة فى النقب الجنوبى .

العدو اذن لم يأخذ الهدنة جدا . .

لقد كانت بالنسبة له فرصة للتعزيز ... انه يقفز تحت ستارها إلى مواقع حاكمة يستطيع منها ، يوم تنتهى الهدنة ، ان يبدأ عملياته من أكثر المراكز ملاءمة لإغراضه .

كان الموقف واضحا لا خفاء فيه لمن يكلف خاطره فيلقى نظرة على الخريطة . أو يتجه بعينيه عبر الناحية الأخرى من خط القتال .

ومع ذلك لم يبد فى قيادتنا ما يدل على انها وعت المعنى الحقيقى الذى يجرى أمامنا . وكان الذى يشغلها على ما يبدو فى ذلك الوقت هو إعداد التقارير الضافية عما جرى من يوم بدأت المعركه حتى فرضت

المدنة ، وكان أبرز ما اهتمت له قيادتنا وأسهبت فى وصف تفاصيله هو كيف اقتحم الجنود مستعمرات العدو وهم يهتفون بحياة جلالة القائد الأعلى للجيش . وهو ما لم يحدث قطعاً ، فان الجنود المهاجمين كان يشغلهم من نيران العدو ما لا يمكن معه أن يخطر ببال واحد منهم أن يهتف لجلالة القائد الأعلى للجيش . .

ماذا نصنع هنا ؟ !

ومضت الأيام . .

ومع مضى الايام كانت همومى تزداد .

لم يكن هناك ما أشكو منه فى اسدود فقد كان كل ما نحتاج اليه متوافر وزيادة .

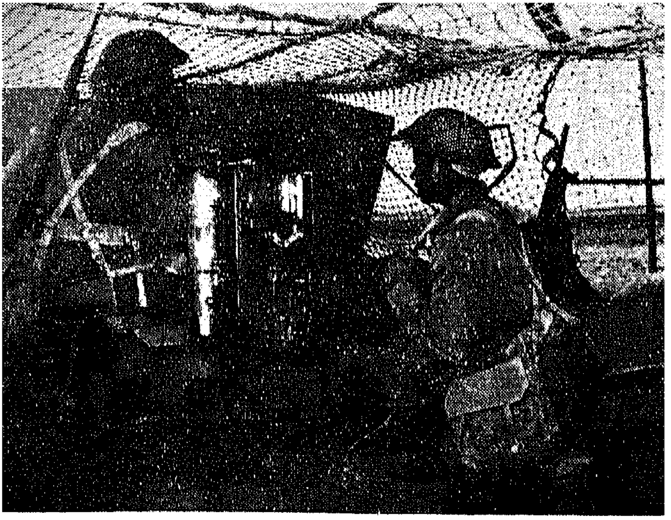
كنا نعيش وكأننا فى معسكر فى القاهرة .

كانت الضحكات تملأ خنادقنا ، وكانت النكات تلف المواقع . . وكانت بعض النكات التى تضحكنا فى ذلك الوقت خليقة بأن تبكينا . .

واذكر ذات يوم انى التقيت بجندى من كتيبتنا وخطر فى بالى — دون سبب محدد — ان أوجه اليه سؤالا أحاول ان أعرف من ورائه مدى فهمه للذى نقوم به فى فلسطين . .

وقلت له :

— احنا هنا بنعمل إيه يا عسكرى ؟



خلقت الثورة أمثال هؤلاء الابطال ..
انهم يؤمنون برسالتهم فى الدفاع عن أرضهم .

وقال الجندى ، ولن أنساها طول عمرى :

ـ احنا هنا بنناور يا افندى . . ؟

وذهلت وقلت له :

ـ نناور ... نناور فين يا عسكرى ؟

وقال الجندى بلهجة الذى يقرر حقيقة بدهية :

ـ فى الربيكى يا افندى . . !

ومنطقة الربيكى هى المنطقة الواقعة على طريق السويس ، والتى اعتاد الجيش المصرى أن يقوم فيها بمنا وراته كل عام . . !

كنا اذن نناور فى الربيكى ، ولم نكن نحارب فى فلسطين . . !

أو هكذا كان يعتقد جندى من كتيبتنا !

ولكن هل كنا نستطيع أن نلومه ؟ ؟

أعمق من الثقـــة والصداقة ؟

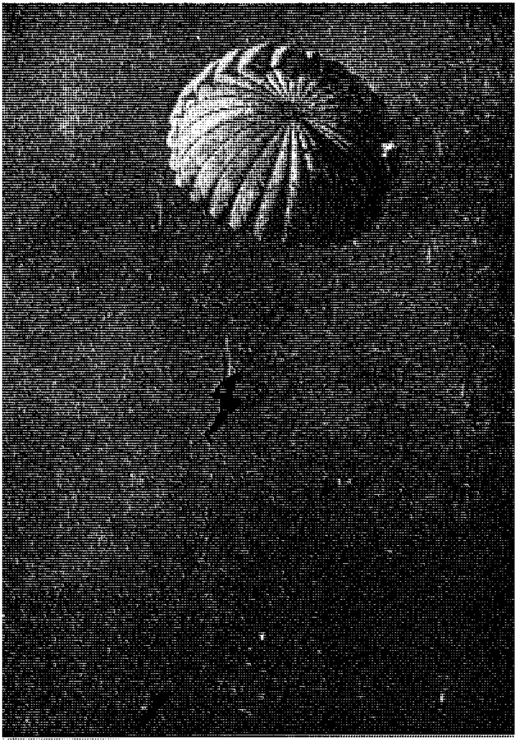
وضقت ذرعا بالبقاء فى مركز رياستنا فذهبت أتجول فى المواقع وأتعرف حقيقة الجو فيها بين الضباط . .

ولا أنكر أنى فى حقيقة الامر كنت أحاول أن أضم بعضهم الى تنظيم الضباط الاحرار . .

ولم أكن أتجه الى الأمر مباشرة فى أحاديثى مع الضباط ، فلم أكن أريد أن أشغلهم عن الجو المحيط بهم مباشرة ، ولا أن أشتت أفكارهم عن العدو الرابض أمامهم متربصا بهم . ولكن طريقتى فى ذلك الوقت كانت ترتكز على عاملين .

أن أعطى الثقة لكل من أقابلهم . .

والعامل الثانى ، أن أقوى صلتى الشخصية بهم إلى أبعد حد .



شيطان ... من شياطين الجو

وكنت واثقا — وبررت التجربة أسباب ثقتى — أن الثقة والصداقة كفيلتان عند ما يحين الوقت المناسب أن تتحولا الى شيء أعمق .

وأنا أنظر حولى الآن ، فاجد وجوها كثيرة فى تنظيم الضباط الأحرار التقيت بها لأول مرة فى الخنادق فى تلك الفترة العجيبة من حياتنا فى حياتنا فى فلسطين . . !

اليقين الضائع !

وقاربت الهدنة أن تنتهى . .

وكان لا بد لجو التراخى على خطوطنا أن يشعر بالخجل ووخز الضمير . .

وبدأت محاولات لتدريب الجنود .

ووصلتنا أحاديث عن نجدات سوف تصل الينا تتقدمها قوات مدرعة ...

وانعقدت فى قيادتنا مؤتمرات لبحث الموقف عند ما تنتهى الهدنة .

وتلقت كتيبتنا فى صباح يوم ٢٨ يونيو أمرا إنذاريا بالاستعداد للهجوم فى يوم لم يحدد بعد ... على هدف لم يحدد أيضا . .

وكان هناك شيء غريب فى هذا كله ، كان مفروضا أن يكون هذا كله جدا ، ولكن شيئا ما ، نبرة خفية فى صوت الحوادث كانت تحمل على الشك .

كان هذا كله أشبه بالجد ... ولكن — وهذا هو الغريب — لم يكن جدا !

فقد كان الشعور بأن الهدنة دائمة وبأن القتال لن يستأنف مرة أخرى ، وبأن الحرب كلها مناورة سياسية ، لا يزال يملأ خنادقنا .

وحضرت فى تلك الفترة مؤتمراً فى رياسة اللواء .

وأذكر أن شعوراً غريبا كان يملأ خواطرى وأنا أجلس الى مائدة الاجتماع فى رياسة اللواء .

كان اليقين الكامل ينقص كل ما كان يدبر ويرسم من خطط . .

وخيل الى أننى أرى مسرحاً أمامى .

مسرحا يحاول كل واحد من الواقفين فيه أن يتقن دوره ... ويبالغ فى رسم معالمه ، ولكن كل واحد منهم يدرك انه مجرد دور ، ثم ينتهى ويعود الى شخصيته الاصلية .

وكان هذا يتناقض مع روح القتال كما كنت أتصورها ، فان مواجهة المعركة والتدبير لها ليسا مجرد دور يجيد ممثله أو لا يجيد ، انه حياة وهو فى كثير من الاحيان موت أيضا . . !

ولكن اليقين كان ضائعاً ... ومن هنا اختفت روح القتال الحقيقية . .

عنب بيت دوراس !

وفى ٢٠ يونيو حضرت مؤتمرا حربيا ثانيا فى رياسة اللواء . .

كنت أحضر كأركان حرب للكتيبة السادسة ، وكان مفروضا أن نتلقى فيه تعليمات قيادتنا عن الخطة المقبلة لقواتنا ساعة تنتهى الهدنة .

كانت الخطة هى القيام بعمليات هجومية على طول الجبهة .

وفى قطاعنا نحن كان الوضع كما يلى :

تتقدم الكتيبة السابعة — التى كانت قد وصلت إلى الميدان قبل الهدنة بقليل — وتستولى على بيت دوراس .

يجىء دورنا نحن ، الكتيبة السادسة ، بعد ذلك مباشرة حين نتقدم الى احتلال الصوافير الغربية والصوافير الشرقية .

ولم يكن مفروضا بالطبع أن أناقش الخطة ، فلم نكن فى المؤتمر لكى نناقش وإنما لكى نتلقى الاوامر ، ويكون جوابنا عليها هو السمع والطاعة .

ولكنى لم أستطع أن أمنع عقلى من أن يناقشها . وأن كنت كبحت جماح لسانى عن أن ينطق بكلمة واحدة مما يدور فى رأسى . .

وكان الذى فى رأسى سهلا منطقيا .

هذه الاهداف التى ترسم الخطط للاستيلاء عليها ، كانت يوم الهدنة — وقبلها بالطبع — خالية تماما من قوات العدو ...

فلماذا سكتت قيادتنا عن احتلالها؟

لماذا تركت العدو يصنع هذا فى فترة الهدنة ، وأعطته شهراً كاملا لكى يدعم مراكزه فيها ويحصنها ... وبعدها نعود نحن لنهاجم لكى نستولى ...

بل أكثر من ذلك ...

كانت هذه المناطق كلها خالية حتى الى ما بعد أسبوعين من قيام الهدنة ، وكانت دورياتنا تذهب اليها ، وبعض الدوريات كانت تعود من هناك بكميات من العنب الشهى كنا نسميه عنب بيت دوراس . فلماذا لم تكلف واحدة من هذه الدوريات العائدة بالعنب أن تبقى فى بيت دوراس وتحتلها ، وبالتالى تمنع العدو من احتلالها ، وبالتالى أيضاً توفر الجهد الذى سنبذله الآن للاستيلاء عليها ...؟

وبمعنى آخر كانت كل هذه المواقع أمامنا لنأخذها بدون قتال ... ولكن قيادتنا العامة آثرت أن تترك الفرصة السانحة للعدو لكى يستولى هو على هذه المواقع دون قتال ثم يخوض جنودنا معارك حامية لكى يستردوها من يده ..

وكانت الافكار تتداعى فى رأسى : واحدة بعد واحدة وانا جالس فى المؤتمر أسمع ولا أتكلم وفى رأسى ما فيه من خواطر ...

إذن فان قائد العدو هو الذى أخذ المبادأة فى يده ...



طلائع جيش مصر الحديثة ...

وإذن فان قائدنا لم يستطع أن يقدر قيمة هذه المواقع فتركها لخصمه ثم أحس هو بعد خصمه بقيمتها فبدأ يجند الرجال لإستردادها .

ومع ذلك ، قلتها لنفسى ، وانا أطرح ما فى رأسى كله جانبا : أن المهم الآن هو الواقع الموجود على الطبيعة ، ولنترك ما كان أو ما كان يجب ان يكون ... !

محـــاولات استكشاف !

وعدت الى كتيبتى بعد المؤتمر فى ذلك اليوم وقلبى تملؤه الاحلام ..

كيف كانت الاحوال المحيطة بنا ، فيجب أن نقف على أقدامنا ونخوض معركة مجيدة ..

كنت أريد أن أفعل كل شىء من أجل كتيبتى ... !

كنت أريدها ان تضرب مثلا فى الميدان لغيرها من الكتائب ، وكنت أحس على أى حال اكثر من غيرى ، بالمصاعب النفسية التى تعيش فيها الكتيبة .

كانت الكتيبة ما زالت تعانى آثار التجربة التى واجهتها أمام الدنجور ...

وصممت فيما بينى وبين نفسى ان نتلافى كل الاخطاء ، وان نحسب كل العوامل ، حتى لا يتكرر الذى حدث فى معركة الدنجور .

وفى صباح أول يوليو ، والهدنة ما زالت تحكم أرض العمليات خرجت مع قائد الكتيبة وزملائنا من الضباط الذين ستقع عليهم مسئولية العمل ، لكى نستكشف بعيوننا الميدان الذى سنحارب فيه .

ولكن الاستكشاف لم يكن سهلا كما تصورنا ، فاننا لم نستطع على الاطلاق أن نلقى نظرة واحدة على الصوافير الشرقية والغربية ...

وكان السبب ان التبه العالية الممتدة أمامنا تخفى الصوافير تماما عن أنظارنا ولم يكن فى استطاعتنا ان نصعد على التبة العالية و نلق نظرة من فوقها ، لأن بيت دوراس التى يحتلها العدو كانت ترتكز فوقها من ناحية ومن الناحية الأخرى كانت ترتكز على معسكر جوليس الذى يحتله العدو أيضاً ...

وكان من رأيى انه لا بد ان تكون لدينا معلومات عن الهدف الذى ننوى أن نحارب من أجله ، وأن تكون هذه المعلومات مفصلة ، وإلا تكررت كارثة الدنجور ... !

وخرجت فى اليوم التالى ، ومعى ضابطان . أولهما ضابط مخابرات الكتيبة ، والثانى هو الملازم أول اسماعيل محي الدين ضابط فصيلة الحملات .

وكان معنا اثنان من الجاويشية ...

أولهما الجاويش عبد الفتاح شرف الدين ، الذى لا يزال حتى الآن صول شرف فى القوات المسلحة ، والذى أعتبره من اكثر الناس بلاء فى فلسطين ...

وثانيهما الجاويش عبد الحكيم ، وهو الآن يعمل سائقا فى المنيا ، وقد زرتها منذ شهور قليلة ، وكان من أمانى أن ألتق فيها بعبدالحكيم .

ليست قصـــة مغامرة !

كان يخالجنى شعور بان الاستيلاء على الصوافير سيكون عملية سهلة . ولست ادرى لماذا كنت أشعر شعورا خفيا بأن قوات العدو فيها ليست مما يخشى خطره ...

وعلى أى حال فها نحن فى الطريق لكى نرى بأنفسنا ونستكشف .

وتركنا سيارتى الجيب اللتين كنا نركبهما ، ثم بدأنا المرحلة الخطيرة من رحلتنا داخل مواقع العدو ..

كنا نخترق أرضا كلها حدائق ، وكنا نتسلل فى صمت بين الأشجار ...

كان اسماعيل محي الدين — يرحمه الله فقداستشهد بعدها بقليل — يسير فى المقدمة .

وكنت بعده وبجوارى ضابط المخابرات .

وكان عبد الفتاح وعبد الحكيم يسيران إلى جانبنا وفى يد كل منهما مدفعه المتأهب لقذف النار .

ولست أريد ان أمضى فى تفاصيل الخطر الذى كان يحيط بنا . فان ما أرويه هنا هو قصة جيش ، وليست قصة مغامرة ...

والمهم على أى حال اننا استطعنا الوصول إلى موقع متقدم يقع وسط خطوط العدو ، ولقد بدت لأعيننا الصوافير الشرقية والصوافير الغربيـــة .

دليـــل من الـكروم الناضجـــة

وقضينا نصف يوم نملأ عيوننا مما حولنا ...

تاملت كل نقطة فى الصوافير ، ودرست احتمالاتها ،

وقام ضابط المخابرات برسم تخطيط كامل لمنطقة معسكر جوليس وما يحيط به من تحصينات .

ولقد وجدت ما يعزز رأيى الذى سبق ان كونته عن قوات العدو فى الصوافير .

لا بد ان عددها كان قليلا كما توقعت ... كان كل شىء حولى يؤيد هذا الرأى ، حتى اشجار الكرم المثقلة بما كانت تحمله من عنب ناضج ، فلو أن قوات الصوافير كانت جموعاً كبيرة ، لما تركت منطقة الحدائق التى كنا فيها خالية ، ولما تركت هذا العنب الناضج الحلو مدلى من شجرة ...

ولم يطل استمتاعنا بالعنب على أى حال ... فلقد لمحنا احدى دوريات العدو متجهة الى موقع النبى صالح ، حيث تركنا سيارتينا ...

وهكذا بدأنا نتسلل عائدين ... !

وعدنا فى اليوم التالى إلى منطقة النبى صالح واكتفينا بالوصول اليها فلم تكن بنا حاجة إلى مغامرات الأمس ، وفى هذه المرة كان معنا قائد الكتيبة وقواد السرايا ، فقد أردت ان يرى كل منهم على الطبيعة دور فى العملية ، وكان فى رأيى ان هذا يحقق غرضين :

الأول أن ترتفع روح الكتيبة المعنوية بأن تدرك تفوقها على العدو الذى تعلم كل شيء عنه وعن مواقعه قبل مهاجمته .

والثانى ان تحقق الكتيبة من وراء ذلك نصراً يرفع اسمها بين الكتائب المحاربة فى الميدان ...

سوء الحظ يتدخل !

وفى يوم ٦ يوليو كنت أستطيع أن أفاخر بأنه ما من كتيبة من الكتائب المتأهبة للعمل فور انتهاء الهدنة تعرف دررها مثل كتيبتنا ...

كان كل واحد من ضباط الكتيبة يعرف عمله .

وكنا جميعاً على إستعداد ..

كل الذى ننتظره ان تتحرك الكتيبة السابعة قبلنا فتحقق غرضها بالاستيلاء على بيت دوراس ، وفى أعقابها نتقدم نحن إلى الصوافير ...!

ولكن الأمور لم تسر على النحو الذى أعددنا أنفسنا له ، فان الكتيبة السابعة لم تستطع أن تقوم بدورها فى الخطة .

ولم يكن الذنب ذنب الكتيبة ، وإنما جاءت الكارثة من مهزلة صنعها سوء الحظ .

كان المفروض أن تتقدم قوة سودانية وتقوم بهجوم ليلى على بيت دوراس وتقتحم مواقعها بالليل معتمدة على المفاجأة .

وكان على القـوة أن تطلق إشارة ضوئيـة خضراء إذا نجحت مهمتها وحينئذ تتقـدم الـكتيبة السابعة فى أعقابها لتدعم وتعزز

أما اذا لم تستطع القوة السودانية أن تتم اقتحامها فعليها أن تطلق إشارة ضـوء حمراء وتبتعد قليـلا عن بيـت دوراس لأن الخطة فى هذه الحالة أن تركز مدفعية الميدان الثقيلة كل نيرانهـا على بيت دوراس .

ونجحت القوة السودانية فى اقتحامها .

ولـكن الفشل كان يدخر جهـده حتى اللحظة التى تطـلق فيها الاشارة التى تنتظرها الـكتيبة السابعة .

كان مفروضا أن تنطلق الى السماء المظلمة إشارة خضراء .

ولـكن الجندى المـكلف باطلاق الاشارة استعمل طلقة حمراء وحين ارتفعت الاشارة الحمراء فى ظلام الليل بدأت مدفعية الميدان كلها على الفور تدق مواقع بيت دوراس التى تحتلها القوة السودانية .

وفشلت المعركة طبعا .

فقـد انسحبت القوة السودانية مسرعة وعنـد ضرب المدفعية عاد العدو الى احتلال بيت دوراس من جديد !

لقمة تتحجر فى حلقى !

وكنا نحن فى الكتيبة السادسة نكاد نجن لهذا الذى حدث .

كان معناه بالنسبة لنا أن تضيع الفرصة التى أعددنا أنفسنا لها وتضيع معها الآمال التى منينا أنفسنا بها . ومعها كل ما بذلنا من جهد واعددنا من خطط .

ولم يكن هناك ما نستطيع عمله الا أن ننتظر التطورات المحتمله ، وندعو الله أن تسنح لنا خلالها فرصة فنصنع الذى أعددنا كل شيء لكى نصنعه !

وفجأة تطورت الأمور تطوراً لم أكن أتوقعه .

واعترف فيما بينى وبين نفسى ، وقد مضى على ذلك الوقت حتى الآن ما يقرب من ست سنوات ، اننى لاول مره وأنا فى الميدان رفعت صوتى محتجا ضد أمر صدر الى من قيادتى .

كنا يوم ٩ يوليو

وكنا جالسين الى الغداء فى مركز رياسة كتيبتنا .

ودخل جاويش يحمل مظروفا من رياسة اللواء عليه اسمى بوصفى أركان حرب الكتيبة السادسة .

وفتحت المظروف وأنا على الغداء وبدأت عيناى تجريان على سطوره . وفجأة أحسست ان الطعام تحجر فى حلقى !

كان الخطاب يحوى سطرين هما :

١ ـــ تسلم الكتيبة السادسة مواقعها اليوم الى الكتيبة الخامسة المتقدمة من غزة .

٢ ـــ تستولى الكتيبة السادسة باكر ١٠ يوليو على بلدة جوليس

ولا بد أن ملامح وجهى فضحت ما كان يدور فى نفسى وانا أقرأ هذا الأمر فان كل من كان معنا على الغداء من الضباط توقفوا عن الطعام وتطلعوا الى . . وكان شعورهم مثال شعورى بعد أن عرفوا ما عرفت ! !

ها نحن نوجه الى معركة لم تعد أنفسنا لها .

لم يقل لنا أحد ما هى مواقع جوليس وما هى قوة العدو فيها ، وما هى تحصيناته . وما هى قواتنا التى تعمل حولها . وما هى العمليات المحيطة بمنطقتها !

ولم يعطنا أحد الفرصة لندرس غرضنا مثل ما فعلنا فى الصوافير .

وأحسست انه بالرغم من إرادتى ، وتحت سمعى وبصرى توضع الكتيبة مرة أخرى فى نفس ظروف الدنجور دون أن يكون بيدى ما أصنعه !

وبدأت احتج .

ولكن ماذا يجدى احتجاجى !

سباق مع الشمس !

كان الوقت كالسيف المصلت على أعناقنا .

كان باقيا على غروب الشمس ثلاث ساعات هى آخر ما تبقى لنا من أمل لكى تخرج فى الضوء وتلق نظرة على الهدف أمامنا .

وخرجت مع القائد وقواد السرايا نحاول أن نقترب من جوليس الى اقرب ما يمكن ان نصل اليه .

واقتربنا فى حمى إحدى بيارات البرتقال حتى أصبح بيننا وبين جوليس ما يقرب من كيلومتر واحد .

ولم نستطع أن نبقى طويلا .

فان العدو على ما يبدو أحس بوجودنا فبدأ يفتش المنطقة بقنابل الهاون .

ومن ناحية أخرى كان النهار يجرى باسرع ما رأيت النهار يجرى فى حياتى ، وبدأت الشمس ترتمى فى أحضان الغروب !

ولم يكن مفر من أن نعود . وعدنا !

كلام كلية أركان الحرب ...

وجلست بعد عودتنا الى مركز الرياسة أضع الخطة .

لقـــد أحس العدو أننا قمنا بالاستكشاف من ناحية بيارة البرتقال . وسوف ينتظرنا فى الغد لـكى نهاجمه منها بالطبع .

وإذن فلن يكون هجومنا الرئيسى غداً من هذا الاتجاه .

سوف تبعث قوة تطلق النار لـــكى يظن العدو أننا وقعنا فى الشرك ، ولـــكن القوة الحقيقية التى ستنفذ الهجوم سـوف تجيء من الخلف وسط مزارع الذرة وتنقض على مواقعة

ووقع الخلاف بيـنى وبين قائد الـكتيبة على دور المدفعيـة والطيران فى المعركة .

كنت كضابط أركان حرب أومن بالعمل المرتب الموقوت بجداول محددة .

ورأى القائد ان يترك اليه امر توجيه المدفعية والطـــيران حسبما يرى حاجة على الطبيعـة عند المعركة .

ولم أكن أومن بهـذه الطريقـة ، ولـكن لم يـكن أمـامى ما أفعله بعد أن قال لى القائد :

ــ وحياتك يا خـويا بلاش الـــكلام بتاع كليـة أركان حـرب ده !

وبدا الصباح يطلع على أرض المعركة . . . وعلى المعركة نفسها .

كانت البداية كما أردت وتمنيت .

ولكن الباقى . كل ما جاء بعد البدايه ، لم يسر ، لا كما أردت ولا كما تمنيت !

وكانت أولى الخطوات على الطريق الذى لم أرده ولا تمنيته من قائد الكتيبة ، فقد قال لى فجأة وهو يراقب عمليات المشاة :

ـــ احنا بنعمل ايه هنا . . . ياللا نشوف عساكرنا تحت

وكانت تلك فى تقديرى روحا طيبة ، ولكنها كانت خروجا على العمل الذى يجب ان يقوم به القائد .

ان مهمة القائد أن يمسك العملية كلها حتى لا تفلت ، ولكن مهمته ليست أن يترك الزمام ويجرى الى التفاصيل ويشغل نفسه بها وينسى قيادته المرجوة ساعة الخطر .

وحاولت أن أقنعه برأيي ولكن الحماسة كانت قد ركبته

ونزلنا الى حيث كان جنود المشاة ولكننا لم نستطع أن نصل فقد غرست سيارتنا على الطريق ولم تستطع أن تشق سبيلها

ونزلنا ، القائد ، وأنا ، وحراسه ندفع السيارة من حيث عجزت عن الحركة .

وأحسست انى أفقد أعصابى ... بنفس الطريقة التى أحسست اننا نفقد بها المعركة ! !

لم نبق فى مركز القيادة حيث كان فى الامكان توجيه المدفعيه وتوجيه الطيران ولم نصل الى جنود المشاةالهاجمين على مواقع العدو .

وعندما وصلنا أخيراً الى مشاتنا الهاجمين ... بدأ قائد الكتيبة الطيب يفقد أعصابه ، لقد التفت الرجل فوجد جنوده يتساقطون من حوله .. بعضهم يقتل وبعضهم يجرح ، وبدأ الرجل يصيح كالثور الهائج :

ـ العساكر بيموتوا !

واقترحت عليه أن نتجه الى الناحية الأخرى لنرى كيف تسير العملية ، وذهب معى وكان او ما قابلنا أربعة من مدافع الهاون تنتظر دورها فى المعركة ، واذا القائد يصرخ قائلا :

ـ المدافع دى بتعمل ايه هنا ؟ ؟

ثم اذن هو يصدر أمره بأن تتقدم المدافع الاربعة ، لكى تتمكن من ضرب جوليس واذا هو يلتفت الى ـ أنا أركان حرب الكتيبة ـ ويقول لى :

— اطلح معاهم ! !

ونظرت اليه فى دهشة .

لقد كانت مهمتى كاركان حرب للكتيبة أن أبقى معه أساعده فى ادار العملية وتنفيذ الخطة التى رسمتها .. وكان فى رأيى ان قيادة العملية باكملها قيادة صحيحة أهم ألف مرة من مظاهرة شجاعة اخرج فيها بأربعة مدافع هاون .

وكان الموقف حساسا .

ولم أكن أريد ان أعارض قائد الكتيبة فى رأيه حتى لا يتصور الرجل ان معارضتى له لا تخرج من عقلى وانما تصدر من أعصابى .

ونظرت له . وفى نفسى ما فيها وقلت له كلمة واحدة :

— حاضر !

وانطلقت مع المدافع الاربعه وسط حقول الذرة الى أن أصبحت جوليس فى تناول مرماها !

دموعي تهطل بحرقة ! !

وبدأت مدافع الهاون تطلق قنابلها . ولكنى لم أكن أسمع الدوى ، فقد كنت أتصور حال الكتيبة التى أفلت زمامها

وأحسست أن قلبي يتمرد على ، وعقلي يتمرد على قائدى ، وكنت مطمئناً الى وضع مدافع الهاون فقررت ان أعود لكى أحاول إن أمسك الزمام قبل أن تقع كارثه .

وقال لى أول ضابط لقيته بعد أن خرجت من حقول الذرة ان اسماعيل محي الدين قد قتل .

ولست أظن أن من حقى ان أخفى اليوم مشاعرى الانسانية .

انى أعترف انى لحظتها فقـــدت سيطرتى على عواطفى واذا دموعى تفلت ، واذا انا أبكى بحرقة لم اشعر بها من قبل فى حياتى .

كنت أبكى على زميل سلاح شجاع سقط فى المعركة .

وكنت أبكى على المعركة نفسها وزمامها فى يد الريح .

ووصلت الى مركز الرياسة ولم يكن فيه أحد .

وسألت عن القائد واذا هو خرج الى حيث لا يعرف أحد ، وبدأت أطالع فى لهفة الاشارات التى تلقتها الرياسة من سراياها المبعثرة فى الميدان .

واحدة منها تقول :

« وصلنا الى الغرض ... ما هى أوامركم ؟ » .

وثانية تقول :

« نحتاج الى ذخيرة » .

وثالثة تقول :

« وصلنا الى الغرض ارسلوا حمالات لنقل الجرحى ! »

وكانت الكارثة ، انها كلها اشارات يعود ارسالها الى وقت مضى .

فما الذى جرى لهذه السرايا فى مواقعها ، وكيف واجهت الموقف وحدها وقيادتها لا ترد عليها .

وحاولت أن أواجه الموقف بقدر ما أستطيع .

وحاولت أيضا ان اتصل بقواتنا الموجودة غرب جوليس ولكن هذه القوات لم تكن ترد على اشاراتنا لها .

ثم فهمت السر حين وصل الى أحد راكبى الموتوسيكلات يقول :

« ان القائد أصدر امره بسحب القوة الموجودة الى الغرب وهو يطلب منى ان أسحب القوات الهاجمة من الجنوب »

ولكن كيف أسحبها ؟ !

لقد سحب القائد القوة التى كانت تضلل العدو عنها دون إخطارى أو إخطارها .

وبدأت أرى بوضوح أن كارثة تحلق فوق رءوسنا ، وكان الذى يحز فى نفسى ان القوة المتقدمة من الجنود للهجوم الاصلى

كانت تشق طريقها بنجاح .

وفعلت ما كنت مترددا فى عمله طول الوقت .

تخطيت قائدى المبـــاشر ، قائد الكتيبة واتصلت بقائد اللواء أشرح له الموقف .

وعلى أى حال فقد تحول هدفنا بعد ذلك من محاولة الاستيلاء على جوليس الى عملية يائسة لانجاد قواتنا من الفخ الذى كادت تسقط فيه .

أجيء معك

وقضيت ليلة حزينة .

أحسست أن كتيبتنا قد فقدت روحها المعنوية .

وأحسست ان روحها العسكرية تفترسها الشكوك وانها بالتالى لم تصبح سهلة القياد .

وفى الصباح جاءنا أمر من رياسة اللواء .

« قائد الكتيبة السادسة يسلمها الى قائدها الثانى وينزل هو الى القاهرة » .

ومن قلبي احسست بالرثاء للقائد الجديد .

ولكن شعورى بالرثاء لم يدم طويلا فقد وصلنا أمر آخر بعد ساعة واحدة ، نصه كما يلى :

« تقوم الكتيبة السادسة باحتلال جوليس اليوم » .

وكان رأيي أن هذا مستحيل .

وكان القائد الجديد متردداً !

كان مقتنعا بما شرحته له عن الروح المعنوية فى الكتيبة ، وعن حالتها ، ولكنه كان متردداً فى ان يأخذ برأيي ويعترض على هذا الامر حتى لا يقال ان اول عمل له بعد أن أصبح قائداً للكتيبة هو خوفه من أن يخوض بها معركة .

وقلت له :

ليس امامك خيار ولن تفقد شيئا على أى حال .

اذا اعترضت فقد يكون هناك احتمال بنقلك من قيادتك وهو مجرد احتمال .

واذا أطعت فان النصر مستحيل وسوف تنقل من قيادتك تلاحقك الهزيمة وهو أمر محقق .

واقتنع القائد بمنطقى وقال لى :

تجى معى الى القيادة العامة ؟

وقلت له .

ــ أجىء معك !

مجرد صدفة !

وبينما نحن ندخل رياسة القوات بعـــدها بساعة واحدة لقيت غرفة على بابها لافتة باسم : مكتب المساعدة الجويه .

ومررت عليهم أسالهم ان كان عندهم معلومات عن جوليس واذا ضابط فى المكتب يقول لى :

عندنا مجموعة من الصور الكاملة للمنطقة من الجو .

وسألته : هل استطيع أن أراها ؟

ووضع الضابط أمامى مجموعة كاملة .

وبدأت أتامل الصور واذا أنا اكتشف حقيقة عجيبة .

ان جوليس نفسها الواقعة فى سفح التبة ليست لها اية قيمة ، والمهم هو معسكر جوليس القابع فوقها على قمة التبة .

ولو فرض ونجحنا فى دخول جوليس لكان معسكرها من فوق القمة قد صنع منها مصيدة ومقبرة فى نفس الوقت لقواتنا .

وبعد مناقشة قصيرة اعتمدت على صور عثرت عليها بمحض المصادفة اقتنعت القيادة العامة لنا بأن الاستيلاء على جوليس كارثة من حسن حظنا أن نعدل عنها .

وعدت الى مركز رياستنا وخواطرى ثائرة على كل شىء .

ثائرة على انه بمحض الصدفة فقط نجونا من كارثة محققة !

ثائرة على معلومات قيمة تضمها صور التقطها الطيران فوق هدف كنا سنهاجمه ومع ذلك فما من أحد فكر فى ارسالها الينا .

ثائرة على الذقون الحليقة الناعمة ، والمكاتب المريحة المرتبة فى مبنى القيادة العامة ، ولا أحد فيها يدرى بماذا تحس القوات المحاربة فى الخنادق ، ولا مدى ما تعانيه من الأوامر التى تصدر اليها بغير حساب .

ومع ذلك فلم تكن هناك فائدة ترجى من هذه الثورة .

وكان الاولى والاجدى أن أدخر أعصابى للمعركه الجديدة التى لم تلبث ان وصلتنا الاوامر بالاستعداد لها !

سوف أذهب معك !

وكانت المعركه الجديدة نموذجا صادقا لكل ما خاضته كتيبتنا حتى الآن من معارك .

كانت هى الأخرى معركه على خريطة .

احدهم فى القيادة العامة نظر الى خريطة ملونة وأحس ـــ وبيده الحق فى هذا الاحساس ـــ ان لهذا الموقع أهمية قصوى فوضع اصبعه عليه وارسل الينا أمرا باحتلاله .

ولكنه لم يبعث لنا مع الأمر بشىء يساعدنا على التنفيذ .

ولم تكن تلك التى تصلنا من قيادتنا العامة أوامر عمليـــات ، لقد كنت أسميها قصاصات ورق وما أظن اننى اخطأت كثيرا فى هذه القسيمة .

هذه المذكرات عن مجلة آخر ساعة

البقية فى الجزء الثالث من سلسلة « كلمة صريحة »